نزول القرءان الكريم على سبعة أحرف ومذاهب العلماء في تفسيرها

د. رمضان يخلف
جامعة الأمير عبد القادر

يعتبر موضوع الأحرف السبعة في القرءان الكريم من بين المباحث التي هي في غاية الأهمية والحساسية، ولأهمية الموضوع فقد تجاذب دراسته العلماء من مختلف الاختصاصات من نحويين وأصوليين ومفسرين ومقرئين وغيرهم.

كما أن هذا الموضوع لازال يكتنفه الغموض من أكثر من جانب، قال ابن الجزري: (مازلت أستشكل هذا الحديث وأفكر فيه، وأمعن النظر من نيف وثلاثين سنة حتى فتح الله علي بما يمكن أن يكون صوابا إن شاء الله)1 وإلى وقت متأخر والكتابات في هذا الموضوع مازالت متضاربة متباعدة، وهو ما دعا العلامة عبد العظيم الزرقاني إلى أن يقول فيه في مطلع البحث: (هذا مبحث طريف وشائق، غير أنه مخيف وشائك)2.

ونحن في هذا البحث سنعرض لمناقشة أشهر أقوال أهل العلم في تفسير معنى الأحرف السبعة، وما يترتب على كل قول منها من نتائج علمية .

أدلة نزول القرءان الكريم على سبعة أحرف

روى حديث نزول القرءان على سبعة أحرف ما لا يقل عن واحد وعشرين صحابيا، منهم عثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب، وأبو بكر الصديق، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب. وغيرهم. فقد روى أبو يعلى في مسنده أن عثمان رضي الله عنه قال يوما وهو على المنبر: أذكر الله رجلا سمع النبي ـ ص ـ قال: "إن القرءان أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كـــاف" لما قام.

فقاموا حتى لم يحصوا عددا، فشهدوا أن رسول الله قال: " إن القرءان أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف" فقال عثمان: وأنا أشهد معهم 3.

وللبخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ـ ص ـ أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده فيزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف. قال ابن شهاب: بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحدا لا يختلف في حلال وحرام 4

وفي الموطأ عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عبد القاري، أنه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأها، وكان رسول الله أقرأنيها، فكدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف، ثم لببته بردائه، فجئت به رسول الله صلى الله ـ ص ـ فقلت: يا رسول الله، إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها، فقال رسول الله ـ ص ـ: أرسله، ثم قال: اقرأ يا هشام، فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ـ ص ـ: هكذا أنزلت، ثم قال لي: اقرأ، فقرأتها، فقال: هكذا أنزلت، إن هذا القرءان أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه5.

وللترمذي عن أبي بن كعب أنه قال: لقي رسول الله ـ ص ـ جبريل عليه السلام عند أحجار المروة، فقال: يا جبرئيل، إني بعثت إلى أمة أميين، منهم العجوز والشيخ الكبير، والغلام والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتابا قط، قال يا محمد إن القرءان أنزل على سبعة أحرف. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح قد روي عن أبي بن كعب من غير وجه 6.

وفي الباب عن عمر وحذيفة، وأبي هريرة، وأم أيوب، وسمرة، وابن عباس، وأبي جهيم بن الحارث7. وللنسائي عن أبي قال: ما حاك في صدري منذ أسلمت إلا أني قرأت آية، وقرأها آخر غير قراءتي، فقلت: أقرأنيها رسول الله ـ ص ـ وقال الآخر: أقرأنيها رسول الله ـ ص ـ فأتيت النبي ـ ص ـ فقلت: يا نبي الله، أقرأني آية كذا وكذا، قال: نعم، وقال الآخر: ألم تقرئني آية كذا وكذا ؟ قال نعم، إن جبريل وميكائيل عليهما السلام أتياني، فقعد جبريل عن يميني

وميكائيل عن يساري، فقال جبريل عليه السلام: اقرأ القرءان على حرف، قال ميكائيل: استزده استزده، حتى بلغ سبعة أحرف، فكل شاف كاف 8. وفي رواية: "إن الله عز وجل يأمرك أن تقرئ أمتك القرءان على سبعة أحرف، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا "9.

معنى نزول القرءان على سبعة أحرف.

أما السبعة فهي العدد المحصور بين الستة والثمانية، وأما الأحرف ـ جمع حرف ـ فله معان كثيرة تدل على أن لفظ الحرف من المشترك اللفظي10، والمشترك اللفظي يراد به أحد المعاني التي تحددها القرائن وتناسب المقام، وأنسب المعاني بالمقام هنا في إطلاق لفظ الحرف أنه الوجه، وهنا يطرح السؤال: ما هي تلك الوجوه السبعة المختارة التي لا تخرج القراءات عنها مهما كثرت وتنوعت في الكلمات الواحدة ؟ وهنا يكثر الخلاف بين العلماء في تعيين معنى الوجوه السبعة التي تجوز قراءة القرءان الكريم بها، وقد ذكر القرطبي ـ نقلا عن ابن حبان ـ أنها بلغت خمسا وثلاثين قولا 11، وزاد السيوطي على ذلك فقال: اختلف في معنى هذا الحديث على نحو أربعين قولا، ثم ذكرها جميعا مع الرد عليها 12. والظاهر أن أغلب هذه الأقوال لا تثبت أمام النقد العلمي، وسنقتصر على دراسة ومناقشة ما اشتهر منها، وهي كما يأتي:

الأول ـ أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب، بمعنى أن القرءان لا يخرج عن سبع لغات من لغات العرب، وهي لغة قريش، وهذيل، وثقيف، وهوازن، وتميم، واليمن .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: ليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات، بل اللغات السبع مفرقة فيه. ويضعف هذا القول بما نقله الواسطي في كتابه "القراءات العشر" بأن في القرءان الكريم من الألفاظ ما ينسب لأربعين قبيلة عربية.

الثاني ـ أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات قبائل مضر خاصة. وهذا القول أشد ضعفا من سابقه، لأن القرءان قد تضمن ألفاظا كثيرة من غير قبائل مضر .

الثالث ـ ذهب أبو جعفر محمد بن سعدان النحوي13إلى أن الحديث مشكل، لأن لفظ "أحرف" مشترك لفظي. فلا ندري معناه، ومن هنا لا يدل على حكم ما، ويدل على ذلك أن الحرف يصدق على عدة معان14. ويرد عليه بأن المشترك اللفظي يعلم معناه متى قامت قرينة تعين ذلك.

الرابع ـ للقاضي عياض ومن تبعه15 بأن لفظ السبعة كناية عن الكثرة، وغير مقصود لذاته، ويدل على ذلك أن لفظ السبعة يطلق في اللغة ويراد به الكثرة في الآحاد، كما يطلق السبعون في العشرات والسبعمائة في المئين، ولا يراد بها العدد المعين 16، وجنح إلى هذا الرأي في العصر الحديث جمال الدين القاسمي في تفسيره " محاسن التأويل". ويدفع هذا القول بما ورد في الأحاديث من استزادة النبي ـ ص ـ لعدد الأحرف حتى بلغت السبعة .

الخامس ـ أن الأحرف السبعة وجوه ترجع إلى كيفية النطق في التلاوة من إدغام وإظهار وترقيق وإمالة وإشباع، وتخفيف وتشديد17

وهو مدفوع بأن هذه الوجوه تزيد عن السبعة. كما أنها لم تستوعب وجوه الخلاف الرئيسية في القراءات القرءانية المتواترة، ولا شك أن هذه الوجوه التي ترجع إلى كيفية النطق في التلاوة هي مما كانت تتباين فيها لغات القبائل، وهي مما يصعب أن تتوحد فيها الألسنة، ولكن فساد هذا الرأي يكمن في حصر الأحرف السبعة فيها، ولو قيل أنها تدخل تحت معنى الأحرف السبعة وتعود إليها لكان فيما يبدو أسلم وأحكم .

السادس ـ أن المقصود بالأحرف السبعة سبعة أصناف في القرءان، ثم اختلفوا في تعيين هذه الأصناف اختلافا كثيرا. فمنهم من قال: إنها أمر ونهي وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال. ومنهم من قال: إنها وعد ووعيد وحلال وحرام، ومواعظ وأمثال واحتجاج. ومنهم من قال: إنها مطلق ومقيد، وخاص وعام، وناسخ ومنسوخ ومؤول .

ويرد على هذا المذهب بما يأتي:

1 ـ أن سياق الأحاديث السابقة بطرقها الصحيحة والمشهورة لا تطابق ما دل عليه هذا المذهب

2 ـ أن اختلافهم الشديد إلى أكثر من عشرين قولا في تعيين هذه الأصناف يبطل قولهم، لأنه لا يوجد سند صحيح يدل على حصر الأحرف السبعة فيما مثلوا لها به .

3 ـ أن التوسعة والتيسير المقصودين في الأحرف السبعة لا أثر لهما في هذا المذهب .

ويبقى من الآراء الواردة في تفسير معنى الأحرف السبعة رأيان جديران بالبحث المناقشة، وهما رأي الطبري ومن ذهب مذهبه كابن عبد البر وسفيان بن عيينة والطحاوي وغيرهم ..

ورأي ابن قتيبة ومن قاربه في مذهبه كالباقلاني وأبي الفضل الرازي وابن الجزري وغيرهم.

أما مذهب أبيَ عبيد القاسم بن سلام فهو شبيه بقول الطبري، إلا أن الطبري قصر وجوه الاختلاف على المرادفات بين هذه الألسن السبعة، أما أبو عبيد فلم يحصره في مجرد المرادفات بين هذه اللغات .

عرض رأي الطبري:

فتحت عنوان " القول في اللغة التي نزل بها القرءان من لغات العرب " عرض الطبري المفسر بتفصيل لموضوع الأحرف السبعة، مبتدئا بإيراد الأحاديث التي رويت في نزول القرءان على سبعة أحرف، ثم قال: (فإن قال: وما برهانك على أن معنى قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ " نزل القرءان على سبعة أحرف " وقوله " أمرت أن أقرأ القرءان على سبعة أحرف " هو ما ادعيته من أنه نزل بسبع لغات، وأمر بقراءته على سبعة ألسن، دون أن يكون معناه ما قاله مخالفوك من أنه نزل بأمر وزجر وترغيب وترهيب وقصص ومثل، ونحو ذلك من الأقوال ؟ فقد علمت قائلي ذلك من سلف الأمة وخيار الأئمة .

قيل له: إن الذين قالوا ذلك لم يدعوا أن تأويل الأخبار التي تقدم ذكرنا لها هو ما زعمت أنهم قالوه في الأحرف السبعة التي نزل بها القرءان دون غيره، فيكون ذلك لقولنا مخالفا، وإنما أخبروا أن القرءان نزل على سبعة أحرف، يعنون بذلك أنه نزل على سبعة أوجه .. والسبعة أحرف هو ما قلنا من أنه الألسن السبعة.. ومعلوم أن تماريهم فيما تماروا فيه من ذلك لو كان

تماريا واختلافا فيما دلت عليه تلاواتهم من التحليل والتحريم والوعد والوعيد وما أشبه ذلك، لكان مستحيلا أن يصوب جميعهم ـ ص ـ ويأمر كل قارئ منهم أن يلزم قراءته في ذلك على النحو الذي هو عليه.. ولو كان ذلك منه تصويبا فيما اختلفت فيه المعاني، لكان قوله: " أنزل القرءان على سبعة أحرف" إثباتا منه لما قد نفى الله تعالى عن كتابه من الاختلاف، ونفيا لما قد أوجب له من الائتلاف .)18. ولقد أفاض الطبري في الدفاع عن هذا المذهب، مثلما أسهب في تضعيف مذهب من قال بأنها سبعة أصناف وأغراض في القرءان الكريم ..

وحول بقاء الأحرف السبعة في القرءان الكريم إلى اليوم ذهب الطبري إلى القول ببقاء حرف واحد منها وقال: (فإن قال: فما بال الأحرف الستة غير موجودة إن كان الأمر في ذلك على ما وصفت، وقد أقرأهن رسول الله أصحابه وأمر بالقراءة بهن، وأنزلهن الله من عنده على نبيه؟ أنسخت فرفعت، فما الدلالة على رفعها؟ أم نسيتهن الأمة. فذلك تضييع ما قد أمروا بحفظه؟ أم ما القصة في ذلك؟ قيل لم تنسخ فترفع، ولا ضيعتها الأمة وهي مأمورة بحفظها، ولكن الأمة أمرت بحفظ القرءان وخيرت في قراءته وحفظه بأي تلك الأحرف السبعة شاءت، كما أمرت إذا حنثت بأي الكفارات الثلاث شاءت)19 .(فإن قال: وما العلة التي أوجبت عليها الثبات على حرف واحد دون سائر الأحرف الستة الباقية ؟ قيل: .. ثم إن حذيفة بن اليمان قدم من غزوة كان غزاها في فرج أرمينية. فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان بن عفان، فقال: يا أمير المؤمنين أدرك الناس، فقال عثمان: وما ذلك ؟ قال: غزوت فرج أرمينية، فحضرها أهل العراق وأهل الشام، فإذا أهل الشام يقرءون بقراءة أبي بن كعب فيأتون بما لم يسمع أهل العراق، فتكفرهم أهل العراق، وإذا أهل العراق يقرءون بقراءة ابن مسعود، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام، فتكفرهم أهل الشام. قال زيد بن ثابت: فأمرني عثمان بن عفان أن أكتب له مصحفا، وقال: إني مدخل معك رجلا فصيحا لبيبا، فما اجتمعتما عليه فاكتباه، وما اختلفتما فيه فارفعاه إلي،

فجعل معه أبان بن سعيد بن العاص. قال: فلما بلغنا " إن آيـة ملكـه أن يـأتيكم التـابوت " قـال زيد: فقلت: التابوه، وقال أبان بن سعيد: التابوت، فرفعنا ذلك إلى عثمان، فكتب التابوت .)20

قال الطبري: (وحدثني يعقوب بن إبراهيم: قال: حدثني أيوب عن أبي قلابة، قال: لما كـان في خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل، والمعلم يعلم قراءة الرجل، فجعل الغلمـان يلتقـون فيختلفون، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين، قال أيوب: فلا أعلمه إلا قال: حتى كفر بعضهم بقـراءة بعض. فبلغ ذلك عثمان فقام خطيبا فقال: أنتم عندي تختلفون فيه وتلحنون، فمن نـأى عنـي مـن أهل الأمصار أشد فيه اختلافا وأشد لحنا، اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماما. قال أبو قلابة: فحدثني أنس بن مالك، قـال: كنـت فيمـن يملـي عليـهم، قـال: فربمـا اختلفـوا في الآيـة فيذكـرون الرجـل قـد تلقاهـا مـن رسـول الله ـ ص ـ ولعلـه أن يكـون غائبـا أو في بعـض البـوادي، فيكتبون ما قبلها وما بعدها ويدعون موضعها، حتى يجيء أو يرسل إليه، فلما فرغ من المصحـف كتب عثمان إلى أهل الأمصار: إني قد صنعت كذا وكذا ومحوت ما عندي، فامحوا ما عندكم .)21

قال الطبري: (وما أشبه ذلك من الأخبار الدالة على أن إمام المسلمين وأمير المؤمنين عثمان بـن عفان رحمة الله عليه جمع المسلمين نظرا منه لهم، وإشفاقا منه عليهم، ورأفـة منـه بـهم، حـذار الردة من بعضهم بعد الإسـلام .. وجمعـهم علـى مصحـف واحـد وحـرف واحـد، وحـرق مـا عـدا المصحف الذي جمعهم عليه .. فلا قراءة اليوم للمسـلمين إلا بـالحرف الواحـد الـذي اختـاره لهـم إمامهم الشفيق الناصح، دون ماعداه من الأحرف الستة الباقية.)22

(فأما ما كان من اختلاف القراءة في رفع حـرف وجـره ونصبـه، وتسـكين حـرف وتحريكـه، ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة، فمن معنى قول النبي ـ صلـى الله عليـه وسـلم ـ " أمـرت أن أقرأ القرءان على سبعة أحـرف " بمعـزل، لأنـه معلـوم أنـه لا حـرف مـن حـروف القـرءان ممـا اختلفت القراءة في قراءته بهذا المعنى يوجب المراء بـه كفـر المـاري بـه في قـول أحـد مـن علمـاء الأمة، وقد أوجب عليه السلام بالمراء فيه الكفـر مـن الوجـه الـذي تنـازع فيـه المتنـازعون إليـه،

وتظاهرت عنه بذلك الرواية.)23 قال ابن عبد البر: (فبان بهذا أن تلك الأحـرف السبعة إنما كان في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرءان على حرف واحد.)24

كما انتصر لهذا المذهب في العصر الحديث محمد أبو شهبة، وضرب لذلك أمثلة فقال: (ومن أمثلة ذلك في القرءان قوله تعالى: " إن كانت إلا صيحة واحدة، وقد قرأ ابن مسعود " إلا زقية واحدة " وقوله تعالى " فاسعوا إلى ذكر الله " قد قرأ عمر رضي الله عنه " فامضوا إلى ذكر الله، كما كان يقرأ أبي بن كعب " للذين آمنوا انظرونا " للذين آمنوا امهلونا " ويقرأ " للذين آمنوا أخرونا " ويقرأ " للذين آمنوا ارقبونا "، وكان في قوله تعالى " كلما أضاء لهم مشوا فيه " يقرأها " سعوا فيه.)25

مناقشة رأي الطبري:

يتبين مما سبق أن الطبري قد ذهب في تفسير معنى الأحرف السبعة إلى أنها سبعة ألسن، ثم حصر هذا الاختلاف بينها - فيما تعلق بالأحرف السبعة - في سبع مرادفات في الكلمة الواحدة من القرءان الكريم، مقررا في الأخير أن الموجود اليوم في المصاحف العثمانية إنما هو حرف واحد، وأن الأحرف الأخرى قد ذهبت، وهو الغرض من كتابة المصحف العثماني لحسم موضع الخلاف وجمع كلمة المسلمين على لسان واحد لتكون قراءتهم واحدة ..

أما كون الترادف الوارد في قراءة القرءان أنه من الأحرف السبعة فهذا صحيح والآثار المروية في الموضوع تعضده، وأما القول بأن الأحرف السبعة محصورة في هذا الوجه فقط فإن هذا لا نسلم له به لمجموعة من الأدلة منها:

- أن حاجة الأمة إلى التيسير في تلاوة القرءان لا تتحقق بمجرد التوسع إلى الألفاظ المترادفة التي وضعت لمعنى واحد ..

ـ وأن الخلاف القائم بين القراءات إلى اليوم لا ينحصر في هذا الجانب، ولا نجد لهذا الاختلاف بين القراءات تفسيرا وسندا شرعيا خارج معنى الأحرف السبعة .

ـ أن الاختلاف بين لغات القبائل السبعة التي يفترض أن يكون القرءان نزل بها لا يمكن حصره في مجرد الترادف بين مجموعة من الألفاظ، بل إن أشد هذا الاختلاف إنما هو في خصائص النطق في اللفظ الواحد، ولا أدل على ذلك من قول ابن جني مثلا نقلا عن الأصمعي:(ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم26، وتلتلة بهراء27، وكشكشة ربيعة28، وكسكسة هوازن29، وتضجع قيس، وعجرفية ضبة30.)31

فهناك اختلاف واضح وجذري بين القبائل العربية في كيفية النطق باللفظة الواحدة كما هو معروف في طرق قراءة بعض كلمات القرءان .

ـ أن اقتصار عثمان بن عفان في المصحف الإمام على حرف واحد وإسقاط الحرف الستة الباقية لا دليل عليه، بل هو مجرد افتراض، وأن جمع الأمة ورفع الاختلاف الواقع بينها في قراءة القرءان لا يقتضي رفع هذه الرخصة وهذا التيسير، بل الظاهر أن عثمان إنما أراد أن يوحد الكتابة والرسم القرءاني الذي يحتمل القراءات الثابتة، حتى إذا وقع الخلاف كان الاحتكام إلى هذه المصاحف في رسمها، ولذلك كان موافقة الرسم شرطا أوليا في إثبات أية قراءة وتصحيحها، وكيف يعقل بعد أن رفع الخلاف في القراءة إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه أن يقف على المنبر فيخطب قائلا: " أذكر الله رجلا سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال إن القرءان أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف لما قام، فقاموا فشهدوا أن الرسول قال: إن القرءان أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف، فقال: وأنا أشهد معهم " 32. ثم يقوم بإسقاط هذه الأحرف والإبقاء على حرف واحد؟ بل الظاهر أنه أراد تأكيد ثبوت هذه الرخصة، حتى إذا علم كل قارئ ذلك أمسك عن الجدال والمماراة، وأيما كانت المصاحف العثمانية اليوم مشتملة على حرفين أو ثلاثة أو أكثر أو أقل فقد نجح عثمان رضي الله عنه في حسم الخلاف، وذلك بوضعه المصحف الإمام وتوزيعه

على الأمصار، وصار كل قارئ يقتصر على ما عرف من القراءة مما يوافق المصحف العثماني، ومن هنا يتبين أن جمع الناس على المصحف العثماني لا يعني بالضرورة إسقاط الأحرف الستة الأخرى، وبخاصة إذا عملنا أن المصاحف العثمانية على ما كانت عليه تحتمل أكثر من وجه من وجوه القراءة، كما أنه لم يصدر من عثمان رضي الله عنه ما يشير إلى كونه عطل هذه الرخصة، وأما قوله للكتاب فما اختلفتم في كتابته فاكتبوه بلغة قريش، فإن المقصود بنوع هذا الخلاف يتعلق بالرسم والإملاء وليس بإثبات قراءة أو نفيها، ولم يختلف الكتاب إلا في رسم كلمة " تابوت " ولما رفع هذا الخلاف إلى عثمان رضي الله عنه أشار عليهم بكتابتها بتاء مفتوحة.

ـ أن انتصار الطبري لهذا الرأي لا يعني بالضرورة أبطال ما ذهب إليه ابن قتيبة وغيره، لأنه لم يتعرض لمناقشته وبيان صحته أو فساده، وإنما أفاض في نقد مذهب القائلين بأن الأحرف السبعة هي سبعة أصناف في القرءان الكريم ـ وهو مصيب في ذلك ـ علما بأن ابن قتيبة سابق لابن جرير الطبر، فلا ندري سبب سكوته عن مناقشة هذا المذهب، وقد يكون السبب أنه لم يصله على ما هو عليه، أو أن هذا المذهب لم يكتب له الذيوع والانتشار يومئذ، وخاصة أن هذا الرأي إنما اشتهر بعد أن انتصر له أبو الفضل الرازي الذي توفي سنة: 454هـ أي بعد قرن ونصف من وفاة الطبري، وازداد انتشارا واشتهارا بعدما ذهب إلى القول به ابن الجزري المتوفي سنة: 833هـ.

مناقشة رأي أبي الفضل الرازي

ويبدأ أصل هذا المذهب مع أبي حاتم السجستاني33 ثم ابن قتيبة في كتابه " تأويل مشكل القرءان"، ثم أبي بكر الباقلاني، وإنما نسبناه إلى أبي الفضل الرازي الذي جاء بعدهم باعتبار تطويره هذا المذهب وشهرة نسبته إليه. وقد اختلفوا في تعيين هذه الوجوه اختلافا يسيرا، لأن الأمر لا يعدو أن يكون اجتهادا قائما على التتبع والاستقراء، ولذلك بين الباقلاني عدم ورود أثر تقوم به الحجة علينا في تحديد أعيان الأحرف السبعة وأجناس اختلافها، وطرق اللغات فيها، كما لم تتفق الأمة على ذلك في عصر من الأعصار اتفاقا ملزما لنا، ثم قال:(ومع ذلك قد يمكن أن

يقال إن السبعة الأحرف واللغات التي نزل بها القرءان محصورة معروفة بما يقرب أن يكون هو المراد بالخبر ولا يبعد..)34

كما لم يذهب ابن الجزري بعيدا عما مثل به الباقلاني لهذه الوجوه السبعة حيث قال:

(لازلت أستشكل هذا الحديث، وأفكر فيه، وأمعن النظر من نيف وثلاثين سنة، حتى فتح الله علي بما يمكن أن يكون صوابا إن شاء الله، ذلك أني تتبعت القراءات صحيحها وشاذها وضعيفها ومنكرها، فإذا هو يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف لا تخرج عنها، وذلك:

أولا: الاختلاف في الحركات بلا تغير في المعنى والصورة. ثانيا: الاختلاف في الحركات بتغير المعنى فقط. ثالثا: الاختلاف في الحروف بتغير المعنى لا الصورة. رابعا: الاختلاف ي الحروف بتغير الصورة لا المعنى. خامسا: الاختلاف في الحروف بتغير الصورة والمعنى. سادسا: الاختلاف في التقديم والتأخير. سابعا: الاختلاف في الزيادة والنقصان. قال ابن الجزري: فهذه سبعة أوجه لا يخرج الاختلاف عنها 35. أما أبو الفضل الرازي فقال:

(فمن التأويلات التي يحتملها الخبر، ولم يتقدم على نظامه تأويل هو أن كل حرف من الأحرف السبعة المنزلة جنس نو نوع من الاختلاف .

أحدها ـ: اختلاف أوزان الأسماء من الواحد والتثنية والجموع والتذكير والمبالغة وغيرها.

الثاني ـ اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر. الثالث ـ اختلاف وجوه الإعراب. الرابع ـ الاختلاف بالنقص والزيادة. الخامس ـ التقديم والتأخير. السادس ـ الاختلاف بالإبدال. السابع ـ اختلاف اللغات (يريد اللهجات) كالإمالة والترقيق والتفخيم والإظهار والإدغام وغيرها.

ويتبين من العرض السابق أن هذه الأقوال الآنفة الذكر متقاربة إن لم نقل متطابقة، إلا أن أكملها وأشملها لوجوه الخلاف القائمة بين لغات العرب يوم نزول القرءان هو قول أبي الفضل الرازي، وبذلك صار قوله علما على هذا الاتجاه .

كما أن هذه الأقوال لا تعارض في حقيقتها قول من قالوا إن الأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب، فالذين فسروا الأحرف بالأوجه السبعة السابقة إنما راعوا وجوه الاختلاف القائمة بين لغات العرب دون حصرها في سبعة ألسن، والذين فسروا الأحرف السبعة بلغات سبعة إنما أرادوا مراعاة وجوه الاختلاف القائمة بين لغات قبائل معدودة، ومن هنا كانت العلاقة بين الرأيين علاقة عموم وخصوص .

وقد ارتضى بعض من العلماء هذا المذهب على غيره من المذاهب لأسباب منها:

1 ـ أنه المذهب الذي تؤيده أكثر الأدلة الواردة في الأحاديث السابقة .

2 ـ أنه المذهب الذي تتجلى فيه مظاهر التيسير أكثر من غيره، وهو الغرض المقصود من نزول القرءان على سبعة أحرف.

3 ـ أن هذا المذهب يعتمد على الاستقراء التام للقراءات المتواترة والصحيحة والشاذة .

الجمع بين الرأيين:

وهكذا فإننا إذا تأملنا في مضمون الرأيين السابقين فإننا نجدهما يتكاملان ولا يتنافران، بل إن جانب الصواب في مذهب الطبري يسد الثغرات الموجودة في رأي أبي الفضل الرازي ومن ذهب مذهبه، كما أن جانب الصواب في رأي قتيبة ومن لف لفه يسد الثغرة الموجودة في رأي الطبري ومن ذهب مذهبه، كما أن هذين المذهبين في جوهرهما لا يبعدان عن قول من فسروا الأحرف باللغات، لأن المقصود باللغات مراعاة الفوارق القائمة بين أشهر لغات العرب، وهي فوارق لا تخرج في مجموعها عما سبق ذكره في مذهبي الطبري وأبي الفضل الرازي، وهذا ما ذهب إليه

الكاتب الأديب مصطفى صادق الرافعي في قوله (وما كان العرب يفهمون من معنى الحرف إلا اللغة) 36

(.. فالتوسعة جاءت عن طريق السبعة إنما كانت بالأخذ بالفوارق القائمة بين اللغات السبع، سواء أدى ذلك إلى إنزال الكلمة على أربعة أوجه أو سبعة أو دون ذلك، وسواء أكانت الفوارق في ألفاظ مختلفة بمعان متفقة، أم كان الافتراق في الإمالة والاشباع والتفخيم والترقيق، أم في إبدال حرف مكان حرف، أو ما إلى ذلك مما تختلف فيه اللغات..)37 وهو الرأي الذين انتصر له غير واحد من المحققين .

قال مكي بن أبي طالب (والذي نعتقده في ذلك، ونقول به وهو الصواب إن شاء الله أن الأحرف السبعة التي نزل بها القرءان هي لغات متفرقة في القرءان، ومعان في ألفاظ تسمع في القراءة، مختلفة في السمع متفقة في المعنى، ومختلفة في السمع والمعنى، نحو تبديل كلمة في موضع بأخرى وصورة الخط متفقة أو مختلفة نحو: يسيركم، وينشركم، ونحو: صيحة، وزقية، وزيادة كلمة ونقص أخرى، وزيادة حرف ونقص حرف، وتغيير حركات في موضع حركات أخر، وإسكان حركة، وتشديد وتخفيف، وتقديم وتأخير، وشبه ذلك، مما يسمع ويميز بالسمع..)38

كما نقل أبو شامة39عن بعض الشيوخ أنه قال: (أنزل القرءان أولا بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء، ثم أبيح للعرب أن يقرؤوه بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم في الألفاظ والإعراب، ولم يكلف أحد منهم الانتقال عن لغته إلى لغة أخرى للمشقة، ولما فيهم من الحمية، وزاد غيره أن الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهي، بل المراعى في ذلك السماع من النبي صلى الله عليه وسلم40.

وإذا سلمنا بأن مفهوم الأحرف السبعة يشمل ما ذهب إليه الطبري ويتسع لما ذهب إليه أبو الفضل الرازي ترجح القول ببقاء الأحرف السبعة في المصاحف العثمانية إلى اليوم كلا أو بعضا، أي أن كل مصحف من هذه المصاحف قد اشتمل على ما يوافق رسمه من هذه الأحرف.

وذلك أننا لو تأملنا الأمثلة التي استشهدنا بها في أوجه الاختلاف السبعة لوجدناها تحتمل أكثر من وجه، لأنها كتبت خالية من النقط والشكل، أما قراءة التقديم والتأخير والزيادة والنقصان فما ثبت في المصاحف العثمانية فهو المحكم، وما خالفه من زيادة فهو منسوخ، ويدل على هذا النسخ إجماع الأمة على ما في المصاحف العثمانية، ومثال ذلك قراءة ابن عباس " يأخذ كل سفينة صالحة غصبا "41، فالقراءة بحذف " صالحة " هي المحكمة، وغيرها منسوخة بآخر عرضة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جبريل عليه السلام. وأما في سورة التوبة، فقد ثبتت الزيادة والنقصان في مصحف عثمان، فقرئ "وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار"42 بإثبات "من" وقرئ بحذفها " تجري تحتها الأنهار" ووجدت الزيادة في المصحف المكي، وحذفت في غيره، فلما كانتا قراءتين محكمتين متواترتين فقد راعاهما عثمان في رسم مصحفه، ومن هذا القبيل وجد الاختلاف في بعض الحروف بين مصاحف الأمصار، فالخلاف بين مصحف أهل المدينة والعراق كان في اثني عشر حرفا، وبين مصحفي أهل الشام والعراق كان نحو أربعين حرفا، وبين أهل الكوفة ومصر في خمسة حروف، وهو المذهب الذي مال إليه غير واحد من المحققين .

قال الإمام أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي: (وأصح ما عليه الحذاق من أهل النظر في معنى ذلك أن ما نحن عليه في وقتنا هذا من هذه القراءات هو بعض الحروف السبعة التي نزل عليها القرءان)43. وقال مكي بن أبي طالب في كتابه "الأمانة" الذي جعله متصلا بآخر كتاب الكشف بمثل ذلك.44

ونخلص من هذا العرض والمناقشة للآراء السابقة إلى تقرير جملة من النتائج نلخصها فيما يأتي:

1 ـ أن نزول القرءان على سبعة أحرف أمر ثابت بالنصوص الصحيحة والمستفيضة، وقد بلغت الأحاديث المروية في الموضوع حد التواتر، وهو ما يقطع الطريق على أعداء الدين والمشككين في

صحة توثيق النص القرءاني، ولقد حكم بالكفر على منكر الأحرف التي نزل بها القرءان إذا بلغته بصورة تفيد العلم اليقيني .

2 ـ وقد بينت لنا نصوص الأحاديث التي أوردناها أن الأحرف السبعة على الحقيقة، وأنها من عند الله تعالى، وأن على المؤمن أن يقرأ بما تيسر منها من غير تفضيل حرف على حرف آخر .

3 ـ كما تبين أن أكثر الآراء الواردة في تفسير الأحرف السبعة هي آراء بعيدة وعارية عن الدليل الصحيح، ولم يثبت أمام البحث والمناقشة إلا ثلاثة أقوال شبيهة بالصواب، وهذه المذاهب بعد النخل والتمحيص تبدو متقاربة بل متكاملة .

4 ـ على أن هذه الأحرف السبعة التي نزل بها القرءان الكريم لم يكن بينها من اختلاف أو تضاد، وإنما كانت في الأمر الواحد الذي لا يختلف في حلال أو حرام، وقد كان نزول هذا الوحي على الرسول خصيصة لهذه الأمة، ومزية للقرءان على سائر الكتب السماوية.

5 ـ كما أنه لا سبيل إلى القطع بأن عثمان رضي الله عنه قد كتب مصاحفه على حرف واحد، بل الظاهر هو بقاء الأحرف السبعة في المصاحف العثمانية كلا أو بعضا .

6 ـ لم يقل أحد من العلماء الأثبات أن الأحرف السبعة هي القراءات السبع المنسوبة إلى القراء السبعة المعروفين، وإنما كان ذلك وهما علق بأذهان العامة لما وافق عدد الأحرف السبعة لعدد القراء السبعة المشهورين، فليست القراءات السبع إلا بعض ما توتر واشتهر من الأحرف.

ولعل بهذه النتائج الطيبة نكون قد أزلنا بعضا من أسباب الغموض التي ظلت تكتنف هذا الموضوع، ورفعنا بعضا من الإشكالات الموهمة للاختلاف والتناقض بين آراء العلماء في مفهوم نزول القرءان على سبعة أحرف.

هوامش

[1]. ابن الجزري، النشر، القاهرة، ص: 19/1

[2]. مناهل العرفان، دار الفكر: 137/1

[3]. رواه أبو يعلى في مسنده عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، انظر الإتقان في علوم القرءان: 45

[4]. مسلم، الجامع الصحيح، كتاب صلاة المسافرين، باب أنزل القرءان على سبعة أحرف. 202/2. طبعة دار الفكر، بيروت .

[5]. مالك، الموطأ، دار الفكر، بيروت، 1985م، ص:167. وفي صحيح مسلم عن أبي بن كعب: 23/2 .

[6]. سنن الترمذي، دار الفكر، أبواب القراءات، باب ما جاء أن القرءان أنزل على سبعة أحرف: 263/4 .

[7]. المصدر نفسه: 263/4

[8]. سنن النسائي، دار المعرفة، لبنان، كتاب الافتتاح، باب جامع ما جاء في القرءان، 491/2 حديث رقم: 940 .

[9]. سنن النسائي، كتاب الافتتاح، باب جامع ما جاء في القرءان: 490/2 حديث رقم: 938 .

[10]. في الصحاح للجوهري: حرف كل شيء طرفه وشفيره وحده، ومنه حرف الجبل، وهو أعلاه المحدد، والحرف واحد حروف التهجي، وقوله تعالى: " ومن الناس من يعبد الله على حرف " قالوا: على وجه واحد، والحرف الناقة الضامرة .. الصحاح: 1342/4.

[11]. القرطبي، الجامع لأحكام القرءان، دار إحياء التراث العربي، بيروت: 42/1 .

[12]. المصدر نفسه: 45

[13]. أبو جعفر محمد بن سعدان النحوي هو أحد القراء، توفي سنة: 213هـ. انظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة: 14/3.

[14]. البرهان في علوم القرءان: 213/1.

[15]. الإتقان: 45

[16]. الإتقان في علوم القرءان: 45

[17]. الإتقان: 46

[18]. الطبري، جامع البيان، دار الفكر، بيروت، 1995م: 37/1 بتصرف

[19]. المصدر نفسه: 43/1

[20]. المصدر نفسه: 44/1

[21]. المصدر نفسه: 46

[22]. المصدر نفسه: 47/1

[23]. المصدر نفسه: 47/1

[24]. الجامع لأحكام القرءان: 43/1

[25]. المصدر نفسه ص: 162 الهامش: 2

[26]. عنعنة تميم: أي كانوا ينطقون "أن" بلفظ "عن" .

[27]. أي يقرءون لفظ: تعلمون وتعملون بكسر التاء .

[28]. كشكشة ربيعة أي يقرءون إنك بلفظ: إنكش، وكلمة رأيتك بلفظ: رأيتكش .

[29]. يقرءون كلمة إنك ورأيتك بلفظ: إنكس ورأيتس .

[30]. تضجع قيس وعجرفية ضبة، يريدون التسجيع .

[31]. ابن جني، سر الصناعة: 229/1.

[32]. سبق تخريجه .

[33]. هو أبو حاتم سهل بن محمد، صاحب المبرد، مات بالبصرة سنة: 255هـ. إنباه اروواة: 58/2 .

[34]. ضياء الدين عتر، الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها: 154

[35]. محمد بن الجزري، النشر: 26/1، الطبعة التجارية، القاهرة .

[36]. مصطفى صادرق الرافعي، إعجاز القرءان: 46

[37]. الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها: 178

[38]. حسن ضياء الدين عتر، الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1، 1988م، ص: 179 .

[39]. هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي، الدمشقي، من فقهاء الشافعية، أصله من القدس، توفي سنة: 665هـ. طبقات الداودي: 263/1 .

[40]. الإتقان: 47

[41]. سورة الكهف: 78

[42]. سورة التوبة: 90

[43]. ابن الجزري، تقريب النشر في القراءات العشر: 32

[44]. المصدر نفسه: 33